

الفصل الثاني

هدوءٌ وصمتٌ.. يقطعها صوت ترتيل خافت له نغمة.. صوت متقطع.. يُعاد ويُكرر.. يأتي هذا الصوت من رجل جالس على سجادة وباسط كفه الأيمن فوق الأيسر في حجره.. أمامه كتاب ويبدو أنه التوراة.. الكتاب على مسند يتلو منه.. هذا الرجل منشغل له تركيز بما هو فيه. وإذا بصوت طرق على باب يُشوش على هذا الجمال والتجلي! انتبه الرجل وما زال تركيزه متجهاً نحو ما كان يقرأه.. انتبه الرجل فوقف مجيباً وظاهر عليه الوقار والجلال.. فتح الباب فإذا بإلياس ودانيال أمام الباب... سبق إلياس بالترحيب ومبتسماً قال:

_ الحمد لله على سلامتكم أيها المحترم.

قال المحترم والتبسم يتملك كل وجهه :

_ إلياس! _ فرحاً برؤيته _ كيف حالك أيها الأخ الحبيب؟

تبسم له إلياس وأخذ يُسلم عليه.. ثم نظر المحترم إلى دانيال يتذكره، ثم قال متسائلاً:

_ دانيال؟

ردَّ دانيال مبتسماً:

_ نعم يا سيدي!

يظهر على وجه المحترم إسحاق الفرح والسعادة برؤيتهما.. فقال لهما مشيراً بالدخول بعد أن سلّم عليهما:

_ تفضلاً! _ وأخذ بأيديهما_ كيف هي حالكما؟ اجلسا.. تفضلاً.. كيف هي الحال؟ الحمد لله على سلامتكما!

أجابا معاً:

_ في أحسن حال أيها المحترم.. ويسعدنا كثيراً رؤيتك.

فقال المحترم:

_ الحمد لله.. وأنا يسعدني كثيراً أن أراكما.. ثم ذهب يحضر مشروباً وشيء يأكل _

إلياس أخذ يجول في المكان.. ودانيال جالس في مكانه وقد أخذ التفكير والحيرة مرة أخرى في أمر هذه الحياة.. كيف هي ولماذا؟ وما هذا يا ترى الذي من حولنا؟ ثم نظر إلى إلياس وفي تجواله في المكان، وإلى ذهاب القس إسحق لإحضار ما يُكرم به أضيافه، وفي سرّه... في سريرة نفسه أخذ دانيال يقول:

_ ما بال إلياس.. ألا يعبأ بالأمر الذي كنا نتحدث فيه؟

أخذ ينظر حوله والحيرة تكاد أن تقتله... ثم قال:

_ ما هذا.. يكاد عقلي أن يُشتت؟ ما بال المحترم إسحاق.. لماذا يبدو عليه أنه لا يُبالي لأمر هذه الحياة؟ ما بال الناس لا تعباً أو تهتم أو تفكر في أمر هذه الحياة التي من حولنا؟ وما بالي أنا لا أستطيع أن أجد إجابة.. وكأنها لغز أو أحجية من أصعب الأحاجي؟ كل ما أملكه هو أن

أتعجب وأتساءل فقط.. وهكذا أنا مُتخبط.. لا طرف للخيط.. عجباً! فهذا ما أملكه.. حتى إن تعجبي هذا لا يكاد يتم، فما زال ينقطع بأشياء تشغلي عنه، أو ينقطع دون انشغالي بشيء؛ فأصير بلا رابط يربطني مع ما حولي.

نظر إلياس إلى دانيال.. فعرف أنه في حالة الحيرة والتساؤل تلك.. قاطعها المحترم إسحاق قائلاً ومعه مشروب وشيء يأكل:
_ مرحباً بكما.. تفضلاً.. تفضلاً!

وأشار بيده أن يجتمعا، وأعطى كلاً منهما مشروباً. أخذ دانيال ما أعطاه إياه المحترم.. ثم رجع بظهره وأسندته بالمقعد وقال ناظراً إلى ما بيده:
_ أيها المحترم! إن بي حيرة.. _ سكت قليلاً فلا يستصيح لفظة الحيرة_ بل هو تعجب أيها المحترم.. ما هذا الذي حولنا؟ يكاد عقلي أن يُشتت.. ما هذا؟ شيءٌ عجيب! أنا.. أنت.. إلياس.. وعالم نشأنا فيه ونعيش فيه.. ما هذا؟

قالها وأخذته لحظة ذهول.. ويبدو أن اندماجه في التفكير زاد عليه.. فأخذ يُردد:
_ ما هذا؟! _

استمع المحترم له بإنصات.. ثم تكلم غير ممهل.. وكأنه اندمج مع دانيال في حيرته وتعجبه عن أمر كونهم وأمر هذه الحياة.. قال المحترم:
_ هل ترى السماء؟ _ وأشار بيده _ هي طبقات.. بضعة طبقات فوق بعضها.. بها ما بها من الاتساع الشيء العظيم.. وكل طبقة من هذه الطبقات تكاد أن تتمزق وتتفطر من شدة ما تجده

من شعور بوجودها وعظيم خلقها. كل طبقة كما قلت لك؛ تكاد أن تتفطر وتمزق وتشتت من فوق الأخرى.. السماء_ يتكلم المحترم وعيناه مفتوحة لا تطرف_ تكاد أن لا تتحمل ذلك الشعور.. تكاد أن تتفطر وتمزق من فرط العظمة.. ما هذا؟!

ما في السماء من امتداد وعِظْم.. وما تحتوي من أشياء_ المحترم يفند أصابع يده ويسند أطرافها على جبهته من شدة ذهوله واندماجه_ تكاد أن تتمزق من شدة العظمة.. ما هذا؟ ولولا أن الله يمسكها ويثبتها_ هنا انتبه دانيال وثبت نظره تجاه المحترم_ لتمزقت وتبعثرت ثم انتهت من فرط العظمة!

يا دانيال! إن الناس لا يمشون إلا في رؤسهم.. ولا يمشون إلا نحو إرضاء أنفسهم.. نسوا أنفسهم.. كيف جاءوا؟ كيف هم هم؟ لا وعي ولا محاولة للوعي والإدراك.. فقط غفلة مطبقة.

قال دانيال والانتباه للمحترم يملكه:

_ إذا.. ماذا في الأمر أيها المحترم؟

قال المحترم:

_ اعلم يا دانيال! أن الله هو الذي خلقك.. وهو الذي أوجد نفسك وجعلها.. وهو خالق السماء والأرض وما فيهما من أصغر شيء إلى أكبره.. من الذرة وما بداخلها إلى أكبر ما في الوجود.. وهو خالق آباءك وأجدادك وموجدهم.. وهو الذي أعطى لكل شيء صورته وشكله وعرفه وهداه إلى فعل ما يفعله.. هو الذي جعل على الأرض كل ما تراه أمام عينك..

وفعل كل هذا لكي يختبرك ويبلوك وينظر إلى أفعالك وكيف هو إيمانك وأنت لا تراه.. إلا أنه رغم كل تلك الفتن والمشاكل التي على الأرض؛ فإنه قد خلقك على أن تعرفه وعلى أن تعبد.. خلقك على أن تعرفه وتعبده رغم كل شيء موجود على الأرض، فلا يُلْهِيك شيء مما هو موجود على تلك الأرض في أن تنسى أنك وما تجده حولك؛ ما أنتم جميعاً إلا خلق الله. والدليل على صدق ما أقوله لك؛ هو ما أنت فيه الآن من الشعور بالحيرة والتعجب والتساؤل.. تُريد أن تجد طريقاً تعرف به كل شيء عنك وعن كل شيء حولك.

قال دانيال والهول والذهول بادٍ على وجهه:

_ إذا أنت تقول بأن هناك أحد قد خلقني عن عمد وقصد؟

أجاب المحترم:

_ نعم! هناك من خلقك وتعمد وقصد ذلك.. تعمد وقصد أن يخلقك في هذه الحياة لينظر كيف تعمل فيها.. وجعل لك كل الاختيار في أن تفعل ما تشاء.. تفعل أي شيء تريده حتى يأتي يوم القيامة؛ فتُحاسب على ما فعلته في هذه الحياة.. فيجزيك على ما كنت تفعل من الأفعال والأعمال الصالحة الحسنة بما لا يخطر لك على بالٍ مما قد أعده لك.. ومن ثم يعفو عما بدر منك من سيئات وذنوب.. ولكي تعرف مقدار ما أعده لك من الأجر على أعمالك الصالحة؛ انظر إلى الطيبات والرزق الموجود في هذه الحياة! فإن هذه الطيبات يوم القيامة؛ تكون خالصة بلا شائبة.. بلا شائبة عطاءً من الله للذين يؤمنون به حساباً منه لهم.

دانيال يستمع ولا يكاد يُصدق بأن الحيرة والعجب والتساؤل الذي كان يشعر به بدأ ينكشف عنده، وبدأت الأمور تتضح.. فقال:

_ أوحقاً ما تقول ؟

قال المحترم والصدق يجري على لسانه:

_ نعم هو حق! وإن في الناس لفريق لا يُصدق ذلك ولا يُريد أن يُصدق.. فريق غافل قد فتنته هذه الحياة وغرته.. فريق غافل تقول لهم إن الله هو ربهم، وهو ربُّ السماء والأرض، وهو ربُّ كل شيء بينهما.. فالتزموا الأفعال الحسنة ولا تفعلوا الأفعال السيئة؛ فإذا قلت لهم ذلك؛ وجدتهم يقولون لك بأن تدع عنك هذا المزاح! كيف هناك ربُّ وخالق للسماء والأرض؟ جميلة حكايات الحدود هذه عندما تستمع لها. ثم ترى هذا الفريق قد استمعوا إليك وكأنهم لم يسمعوا شيئاً قلته.. وغير ذلك أنك تراهم يجحدون الناصح ويؤذونه ويشتمونه.. ثم يرجعون إلى حياتهم ومشاكلهم وكأن شيئاً لم يحدث.. فإن أولئك الفريق هم الخاسرون يوم القيامة.. وحساب أولئك الخاسرين على الله أيضاً.

قال دانيال:

_ ولماذا يفعلون ذلك؟

أجاب المحترم:

_ لأن هؤلاء الناس قد لهتهم وغرتهم الحياة بما فيها.. فاقتروا الأفعال السيئة واعتادوا عليها.. وحسبوا أنهم هكذا يفعلون أحسن الأعمال صنعاً. وحسبوا أنها هذه الحياة شيء بلا معنى.. وأن الأمر هو هكذا سائر.. لا أكثر ولا أقل.. وأنه لا إيمان ولا امتثال لنصيحة من أحد.. فغير الغفلة والضلال لا يُطاق مهما كان.. وما لغير الغفلة والضلال من إيمان أو امتثال.. وما لغير

الغفلة والضلال إلا الجحود والنسيان.. وذهاب البصر أحب من اتباع غيرهما.. فما السبيل إلا ما يرون.

دخل إلياس في الحوار فقال:

_ وكيف يرضى الناس بتلك الغفلة؟ وكيف تستوي عندهم هي والهدى والرشاد؟

أجاب المحترم:

_ هكذا هي الحال عند الغافلين.. الغافلين الذين نسوا أنفسهم ونسوا ما حولهم من أشكال الحياة.. فصار كل خير وهدى عندهم كذب.. وكل شيء عندهم ضلال مبين.. كل شيء ضلال وكذب إلا الغفلة وفعل والسوء.. وإذا ما حاول أحد أن ينصحهم وينهاهم ويدعهم إلى الخير والإيمان؛ فما هو إلا ضال كذاب قد افتري الكذب وتفنن في إخراجه، فلم يعد للهدى والرشاد مكان عندهم.. ولكن الذي له مكان عندهم حقاً هي الغفلة وفعل السوء.

قال إلياس:

_ ولماذا يتركهم الله هكذا يفسدون في الأرض.. أم أنه ليس له قدرة عليهم؟

أجاب المحترم وقد اتجه بنظره إليه:

_ بل هو القادر على أن يُخرج عليهم ألوان العذاب من الأرض تحت أرجلهم أو من السماء من فوق رؤسهم! وما كان الله ليذر الناس أن يفعلوا الباطل والسوء أو أن يُحدثوه؛ لولا أن هناك يوم قيامة.. يوم حساب مُرجون إليه. يومٌ عقيم قادم لا شبيه له ولا مثل.. سيرحم الله حينها الكثير الناس.. وسينتقم انتقاماً شديداً الرعب من المفسدين الظالمين.

والويل كل الويل لمن جاوزته رحمة الله ولم يدخلها رغم أنها قد وسعت كل شيء! الويل له بسبب ما قد ظنه من الظنون الكاذبة.. الويل له بسبب ما قاله من كذب في أمر هذه الحياة وما قد قدره لها وأشاعه عنها وأقره لها بافترائه وكذبه! الويل لمن تسبب في زيادة غفلة الناس وترسيخ أقدامهم أكثر في الفساد والظلم.. الويل كل الويل حقاً له!

واعلم يا دانيال أنت وإلياس! أنه ما كان لله أن يترك من دابة على وجه الأرض بسبب الظلم؛ لولا يوم القيامة ذلك.

قال إلياس وقد اتسعت عيناه:

_ وكيف سيكون العذاب في يوم القيامة؟

ردّ المحترم:

_ إذا بدا ما قد أُعد من العذاب؛ رأيت الغلام الصغير يشيب شعر رأسه من الفزع والهول.. يشيب شعره إذا قيل العذاب والسعير قد بدأ.. يشيب هر رأسه إذا قيل أخرجوا للنار من بين كل ألف؛ واحداً لك "جنة" وباقي الألف في النار.. ألقوهم في أشد العذاب!

ويوم القيامة أيضاً؛ ترى كيف هي رحمة الله في مغفرته وعفوه عن الناس.. تراها فتحسب أن ما هناك من عذاب.. تراها فتعلم حقاً أن الله خلق السماء والأرض بالحق ولينظر كيف سيعمل الناس فيما خلقهم فيه.. فيجزئهم بأحسن الأعمال التي قد صنعوها.. ويتجاوز عن ما بدا منهم من السيئات.. ولكي تعرف مقدار رحمته يوم القيامة؛ انظر إلى رحمته في الدنيا للناس! وكيف أنه صابر عليهم ورحيم؛ لعلهم يرجعون ويتوبون.

عمّ الصمت قليلاً في المكان.. ثم قال دانيال بعدما شدّه كلام المحترم:
_ أخبرني أكثر عن الله !

قال المحترم:

_ في كل أمرك وشأنك؛ يكون هو معك... ويكون عليك شاهد ويسمعك.. هو الله القائم على كل أحد وكل نفس.. يراى ويسمع كل واحد. وهو القائم الشاهد على حركة الذرة وما بداخلها لا تعزب عنه ولا تغيب.. وهو أيضاً القائم الشاهد على حركة المجرة ويعلمها فلا تعزب عنه ولا تغيب.. قائم وشاهد على ما في السموات والأرض ويعلم ما فيها.. لا يعزب ولا يغيب عنه شيء مما في هذا الكون.

كل ما ترى وما لا ترى هو الذي خلقه وأعطه ما لديه من صفات وخلق وميزه عن باقي المخلوقات.. كل ما ترى وما لا ترى لم يكن له وجود؛ إلا حينما أوجده هو.. وهو الذي هدى كل شيء وعرفه كيف يتحرك ويفعل ما يفعله ويسره لذلك كله.

كرسيه تعالى وسع السموات والأرض.. يسمعنا الآن ويرنا.. يمسك السموات والأرض من أن تزولا فلا يبقى من معالمها شيء.. وأنه لا يُبقي السموات والأرض على حالتها تلك؛ إلا هو سبحانه.. فهو الذي يمسكها.

هو ظاهر فلا شيء ظاهر مثله من شدة ظهوره.. وهو باطن لا شيء أبطن وأشدّ خفاءً منه.

قاطع دانيال قائلاً:

_ وكيف هو ظاهر ولا أحد يراه؟

أجابه المحترم والوقار ظاهر على وجهه والعلم ينسكب من فمه:

_ وأني للناس أن يروه وهم لا يمشون إلا في رؤوسهم؟ فهم لا يستخدمون أبصارهم أو آذانهم إلا ليزدادوا انغماساً في ما هم فيه من الغفلة والتلاهي وتوثق أرجلهم وتتوغل في رؤوسهم أكثر فأكثر.

والله هو الذي خلقك مما تعلم _ حرك المحترم إصبعيه على بعضهما.. أي من نطفة ومن مني.. من ماء الرجل وماء المرأة _ ذلك هو ربي وربك ورب كل شيء فاعبده!

وهو الذي يطعمك ويسقيك بلطفه فلا تشعر أن أحداً يسقيك أو يطعمك.. كل شيء في السموات والأرض ملكه.. بمعنى أن كل شيء ملكه! ترجع إليه أمور كل شيء.. بمعنى أنه ترجع إليه أمور كل شيء!

إذا مرضت فلا شافي لك إلا هو بلطفه فلا تشعر أن أحداً شفاك.. فذلك هو الله رب كل شيء فاعبده!

* * *